وبعثت إلى الناس عامة »[1].

« فتيمموا صعيداً طيباً » ، أى أن تكون واثقاً أنه ليس عليه نجاسة ، « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ، المسألة فيها « جنب » وفيها كذا وكذا . . « وتيمم » ، إذن فكلمة « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ليس ذلك معناه أن التيمم خَلَف وبديل عن الوضوء فحسب ، ففى الوضوء كنت أتمضمض ، وكنت أستنشق ، وكنت أغسل الوجه ، وكنت أغسل اليدين ، وأمسح الرأس والأذنين . . مثلاً ، وأنا أتكلم عن الأركان والسنن . وفى هذه الآية يوضح الحق : مادامت المسألة بصعيد طيب وتراب فذلك يصح سواء أكانت للحدث الأصغر أم للجنابة ، إذن فيكفى أن تمسح بالوجه واليدين .

« فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » وتساءل بعضهم : أهى ضربة واحدة نلمس بها الأرض أم ضربتان ؟ نقول : سبحانه قال : « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ، وبعض العلماء قال : ضربة واحدة ، وبعضهم قال : ضربتان وكلها تيسير . وهذا التخفيف مناسب لكلمة العفو ، فيقول الحق : « إن الله كان عفواً غفوراً » ولكن ماذا حدث هنا ليذكر المغفرة ؟ لأنه غفر وستر علينا المشقة فى ضرورة البحث عن الماء ويسر ورخص لنا فى التيمم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ﴾

حين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يؤكد قضية من قضايا الكون ليمهد لقضية من قضايا العقائد التى تحرس نظام الكون فهو يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائى عن جابر .

بقوله : « ألم تر » . والرؤية عمل العين ـ وعمل العين متعلق بانكشاف الأحداث التى تتعرض لها العين ـ والشيء المرئى دليله معه ، لأن الشيء المسموع دليله يؤخذ من صدق قائله ، وصدق قائله أمر مظنون ، أيكذب أم يصدق ؟ أما المرئى فدليله معه ، ولذلك قالوا : ليس مع العين أين ، أى أنك إذا رأيت شيئاً فلا تقل:أين هو ، وليس الخبر كالعيان ، فالخبر الذى تسمعه ليس كالمشاهدة ، إذن فالمشاهدة دليلها معها ، فلا يقال: دلل على أن فلاناً يلبس جلباباً أبيض وأنت تراه .

إذن فحين يريد الحق أن يؤكد قضية يقول : أرأيت . ولذلك فأنت إذا حدثت إنساناً عن انحراف إنسان آخر . قد يصدقك وقد لا يصدقك ، لكن إذا ما رأيت الإنسان يلعب ميسراً أو يشرب خمراً ثم تقول لمن حدثته من قبل : أرايت من قلت لك عليه ، كأن الرؤية دليل . والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : « أرأيت » ننظر إلى الأمر ، فإذا كان مشهوداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يراه بذلك تكون « أرأيت » على حقيقتها ، كما يقول له :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ ﴾

(سورة العلق)

هو صلى الله عليه وسلم قد رآه ، فتكون « أرأيت » على حقيقتها أم ليست على حقيقتها ؟ ولماذا يأتى بهمزة الاستفام « أرأيت » ؛ على الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم قد رأى من ينهى إنساناً عن الصلاة ولماذا لم يقل : « رأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى » ، لا ؛ لأن الحق يريد أن يؤكد الخبر بمراحل . فمرة يكون الخبر خبراً تسمعه الأذن ، ومرة يكون رؤية تراه ، ومرة لا يقول له : أنت رأيت ، ولكن يستفهم منه بـ « أرأيت » لكى ينتظر منه الجواب . وبذلك يأتى الجواب من المخاطب نفسه وليس من المتكلم ، وهذه آكد أنواع البيان وآكد ألوان التحقيق ، فحين يخاطب الحق سبحانه وتعالى بقوله : « أرأيت » نقول : أكان ذلك مشهداً لرسول الله رآه ، فتكون الرؤية على حقيقتها . فإذا كان الأمر لم يكن معاصراً لرسول الله ثم يخاطب الله رسوله بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ ﴾

(سورة الفيل)

ونعلم أن أصحاب الفيل كانوا عام ميلاده صلى الله عليه وسلم ، فهو حين

يخاطب رسوله لم يكن المشهد أمامه ، فـ« ألم تر » هنا بمعنى أعلمت ، ولماذا عدل هنا عن أعلمت إلى قوله : « ألم تر »؟. لأن الحق سبحانه وتعالى حين يخاطب رسوله بأمر منه فهو يوضح له : إن أخبرتك بشيء فاعلم أنى أصدق من عينك ، فإذا قال سبحانه : « ألم تر » فهذا يعنى أنك علمت من الحق سبحانه وتعالى ، وإخبار الحق ليس كإخبار الخلق ؛ لأن إخبار الخلق يحتمل الصدق والكذب ، لكن إخبار الحق لا يعنى إلا الصدق ، إذن فرؤية عينك قد تخونك ؛ لأنك قد تكون غافلاً فلا ترى كل الحقيقة ، لكن إذا أخبرك الحق سبحانه وتعالى فسيخبرك بكل زوايا الحقيقة . إذن فإخبار الحق أوثق وآكد من رؤية العين وسبحانه عندما قال :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ ﴾

(سورة العلق)

هذه مثلت الأولى ، وحين قال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ ﴾

(سورة الفيل)

كأنك تراهم الآن ، فـ« ألم تر » تعنى كأن المشهد أمامك .

إذن فوسائل تأكيد الأشياء : خبر من خلق يحتمل الصدق ويحتمل الكذب . هذه واحدة ، ورؤية من خلق تحتمل أنها استوعبت كل المرئى أو أحاطت ببعضه ، أو خبر من خالق أحاط بكل شيء ، فيجب أن يكون الخبر من الخالق أوثق الأخبار فى تصديقهم .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » جاءت هذه الآية ورسول الله يعاصره قوم من اليهود . ورأى منهم بالفعل أنهم أوتوا نصيباً من الكتاب ، لأنهم أهل كتاب ، ومع ذلك يشترون الضلالة ؛ ولا يقولون الحق ، فيكون هذا أمرا مشهديا بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وحينما أرسل الله محمداً جعله ختاماً للأنبياء وختم به ركب النبوة ، وهذا يعنى : أن النبوة كان لها ركب . وفى كل عصر من العصور يأتى نبى على مقدار اتساع الحياة ، وعلى مقدار التقاء الكائنين فى الحياة ، وعلى مقدار الداءات والأمراض التى تأتى فى المجتمع ، ولكن الله علم أزلاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيأتى فى فترة ورسالته ومنهجه ينتظم ويضم كل قضايا الزمن إلى أن

تقوم الساعة . وهو زمن يعلم الله أن فوارق المواصلات فيه ستنتهى ، وفوارق الحواجز فيه ستنتهى ، فيحدث الخبر فى أدنى الشرق وأعلاه فتسمعه فى أدنى الغرب وأعلاه ، والخبر فى الغرب تسمعه فى الشرق . والداء يوجد مرة فى أمريكا وبعد يوم أو يومين يوجد فى أى بلد من البلاد .

إذن فالمسافات انتهت ، وجعلت المواصلات العالم كقطعة واحدة ، إذن فالداءات فى المجتمع القديم لعسر الاتصال كانت تنعزل انعزالاً إقليمياً وكل داء فى جماعة قد لا يصل إلى الجماعة الأخرى ، فهؤلاء لهم داء لا يصل إلى الجماعة الأخرى ؛ لذلك كان الحق يرسل رسولاً لكل جماعة ليعالج داءاتها،لكن إذا التحم العالم هذا الالتحام ؛ فلا بد أن يأتى رسول واحد جامع للناس جميعاً ؛ لأن قضايا الداءات ستكون واحدة . ونحن نرى الآن كل يوم عجبا ، كلما تحدث حادثة هناك نجدها عندنا .

إذن فلا بد أن تتوحد الرسالة . وحين تتوحد الرسالة فلا يأتى رسول ليستدرك بعد ذلك ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم جاء خاتماً ؛ ولذلك أخذ الله العهد على كل رسول أن يبشر قومه بأنه سيأتى رسول خاتم ليكون عند أهل كل ديانة خَلْفية تطمئنهم على أنه إذا جاء رسول ، فقد عرفوا خبر مقدمه ويقولون : لقد قالت لنا رسلنا ؛ ولذلك قال الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

ثم قال :

﴿ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

راجع أصله وخرّج أحاديثه فضيلة الدكتور / أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إذن فرسول الله مشهود له من كل الرسل ؛ ولذلك أكد صلى الله عليه وسلم ديانات كل الرسل . وجاء دينه بديانات كل الرسل ؛ لأنهم معه على منهجه الذى نزل به ، والذين يلتحمون بالإيمان بالسماء بواسطة الرسل السابقين ؛ إذا ما جاءهم خبر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقد يجعلهم تعصبهم لدينهم ينصرفون عنه ، فأعطاهم الحق الخميرة الإيمانية وأوضح لهم : سيأتى رسول خاتم فتنبهوا يا كل الأقوام إذا ما جاء الرسول الخاتم فلا بد أن تؤمنوا به . وكان عندهم فى كتبهم الدلالات والإخبارات . إذن فالله أعطاهم نصيبا من الكتاب . وانظروا إلى دقة الأداء القرآنى : « ألم تر » يا محمد « إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » جاء هذا القول وهو يحمل لهم عذرهم إن فاتهم شىء من الكتاب ؛ لأنه سيقول فى آية أخرى :

﴿ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

ومادامو قد نسوا فهم معذورون ، لكن من عندهم كفاية فى العلم من الذين « أوتوا نصيباً من الكتاب » ، كان المفروض فيهم أن تكون آذانهم مستشرفة إلى صوت داعية الحق الخاتم ، وهذا كان معروفا لهم من قبل ؛ لذلك يقول لنا ربنا :

﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

فهم كانوا يقولون لعبدة الأوثان من العرب : نحن فى انتظار النبى الخاتم الذى سيرسله الله لنسبقكم إلى الإيمان به ، فإذا ماسبقناكم إلى الإيمان به وظللتم على كفركم ، سنقتلكم به قتل عاد وإرم . إذن فهم معتصمون بالإيمان بالسماء ، فقل لى : إذا قالوا هذا القول ، وهم معروفون أنهم أهل كتاب فلماذا كفروا بالرسول صلى الله عليه وسلم ؟ إن كفار قريش لم يقولوا : إننا أهل كتاب ، بل كانوا على فترة من الرسل ، فكان المفروض أنه إذا ما جاء الرسول تسابق أهل الكتاب إلى الإيمان به لأنه سبق لهم أن توعدوا به العرب . لقد أعطاهم الله منزلة عالية لكنهم من لؤمهم لم ينتفعوا بها ؛ فيقول الحق :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الرعد)

لقد جعلكم الحق شهوداً على صدق الدعوة ، هو شاهد وأنتم شهود ، وهذه منزلة كبيرة ، لكنهم لم يلتفتوا إلى تلك المنزلة وركبوا سفينة العناد الغارقة :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

ولكن يجب أن نفطن إلى أن الحق سبحانه وتعالى حينما يرسل قضية عقدية فى الكون فيخالفها مخالف يظن أنه يضار الله ، نقول له : لا.أنت تفعل ذلك لشهوة فى نفسك . لكن الحق سيجعلها لنصرة الدين الخاتم ، وتكون أنت مغفلاً فى هذا الموقف . فإياك أن تظن أنك قادر أن تصادر مرادات الله حين كذبت بمحمد وجعلك ربنا تقول هذه الكلمة للمشركين من قريش ، فانظر ماذا ستفعل هذه الكلمة ؟ . ولكى تعرف أنت بإنكارك ماذا قدمت للإيمان . أنت فهمت أنك صادمت الإيمان . لا . أنت أيدت ونصرت الإيمان لكن بتغفيل ! وعليك وزر .

فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعلن دعوته من ربه . قال العرب المشركون الوثنيون : إن هذا النبى هو الذى توعدتنا به اليهود ، فهيا نسبق إلى الإيمان به قبل أن يسبقونا .

إذن أخدموا الإيمان أم لا ؟ . . لقد خدموا الإيمان . إذن فلا يظنن عاص أنه يقدر أن يطفىء نور الله ، لأن الله يتم نوره ولو كره الكافرون . ومثال لذلك عندما غيّر ربنا القبلة ويوضح : يا محمد أنا أعرف أنك مستشرف ومتشوق إلى أن تتوجه إلى الكعبة ، وأنا قد وجهتك أولاً لبيت المقدس لمعنى . ولكن أنا سأوجهك للكعبة وعليك أن تلاحظ أنى حين أوجهك إلى الكعبة سيقول السفهاء « وهم اليهود » :

﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

فهم يتساءلون : ما الذى جعلهم يتركون القبلة التى كانوا عليها ؟ فإن كانت قبلة إبراهيم هى الكعبة فلماذا لم يتجه إليها من أول الأمر ؟ هم سيقولون هذا الكلام . ونزل به قرآن يتلى ويسجل . ومن تغفيلهم ساعة تغيرت القبلة قالوا ذلك القول أيضاً ، ولم يلتفتوا إلى أن الحق قال من قبل :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

فعلى الرغم من ذكائهم إلا أنهم قالوا هذا الكلام ، مما يدل على أن الكفر مظلم والكافر فى ظلام فلا يعرف كيف ينصر نفسه . وجعل الله الكفر وسيلة للإيمان . فلو أنهم كانوا أذكياء بحق وأصحاب بصيرة لكانوا بمجرد أن قال القرآن : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » ، لجمعوا بعضهم وقالوا : القرآن قال : إننا سنقول كذا وكذا ، فهيًا لا نقول كى يكون القرآن غير صادق . لكنهم لم يقدروا على ذلك . إذن فالكافر مغفل . هم يظنون أنهم بكفرهم يطمسون الإيمان بالله . لا ؛ لأن الله جعل الكفر وسيلة للإيمان ، والحديث الشريف يقول :

(إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)[1] .

فالحق سبحانه وتعالى يبيّن : هؤلاء أوتوا نصيباً من الكتاب ، وكان المفروض لمن أوتوا نصيباً من الكتاب أن يكونوا أول من آمن . لكنهم لم يؤمنوا ، هذه أول مرتبة ، وليتهم اقتصروا فى الشرّ على هذه ، وبذلك تقف المسألة وتظل معلقة بهم ، ولكنهم يشترون الضلالة ، ليس فقط فى نفوسهم بل يريدون أن يُضلوا غيرهم ، وهذه هى المرحلة الثانية ، فهناك من يَضِل فى ذاته وهو حرّ ، لكن أن يحاول إضلال غيره فهذا كفر مركب . أنت ضَلَلْت وانتهيت ، فلماذا تريدنى أن أضل ؟ لأن الضال أو المنحرف أو الذى ليس على طريق مستقيم إنما يعرف الطريق المستقيم جيداً . ولكن الصعوبة فى أنه لا يستطيع أن يحمل نفسه عليه . فإذا ما وجد إنساناً مؤمناً فهو يستصغر نفسه ، « لماذا آمن هو وأنا لم أؤمن » ؟

إذن فلا أقل من أن يحاول جذبه فى صفه حتى لا يكون هو المنحرف الوحيد ، فإذا رأيت مثلاً فى بلد من البلاد بعض المنحرفين ، ويرون واحداً مستقيماً فهم يتضاءلون أمامه ، وينظرون إليه نظرة حقد ، ويقولون : لماذا هو مستقيم ؟ لا بد أن نسحبه للانحراف .

---

(١) رواه البخارى .

ولذلك يجب على المستقيمين أن ينتبهوا جيداً إلى أن شياطين الإنس لن تتركهم فى طاعتهم ، بل إنهم سيحاولون أن يستميلوهم ، لأنه يعزّ عليهم أنهم لا يقدرون على أنفسهم ويحزّ فى نفوسهم أكثر أن يجدوا بشراً مثلهم قد قدر على نفسه واستقام . ولذلك يقولون : هيا نكون كلنا معاً فى المعصية حتى لا يرفع أحد رأسه على الآخر. فلنكن كلنا كذابين حتى لا يوجد فينا واحد صادق يذلنا . والكذاب كلما رأى الصادق يشعر أن هناك حربة تنغرز فى قلبه !! والخائن ساعة يرى الأمين تكون الرؤية حربة تنزل فى قلبه ؛ فيريد أن يكون الكل مثله ، هذه معنى « يشترون الضلالة » .

والحق يقول لهم : أنتم أحرار بشرائكم الضلالة وستجدون الجزاء فى النار ، فلماذا تريدون أن تضلوا الناس ؟ إذن فيجب أن ينتبه أهل الطاعة إلى هذا الأمر ، وعندما يستهزىء أحد من طاعتهم فعليهم أن يلتفتوا إلى قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾

(سورة المطففين)

وهذا ما يحدث إذا رأى بعض المنحرفين واحداً يذهب إلى المسجد أو يصلى ، يقولون له : « خذنا على جناحك » ويسخرون منه ويستهزئون ، لأنهم ساعة يرونه مقبلاً على الطاعة وهم غير قادرين على أن يكونوا طائعين يتضاءلون أمام أنفسهم ؛ لذلك يريدون أن يكون الكل غير طائع ، وهذه هى الصورة التى نراها الآن ، وعندما يقابل هؤلاء أهاليهم يتضاحكون بسرور من أنهم ضايقوا مؤمناً ، ويقولون : قابلنا مؤمناً واستهزأنا به ، ويتابع الحق :

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

فالله سبحانه وتعالى يوضح لنا : أن هؤلاء المستهزئين بالدين يتهمون المتدينين بأنهم على ضلال . فإياكم أن تيأسوا أمام هؤلاء ، إياكم أن تهزموا أمام هؤلاء لأننى سأنتقم عياناً من هؤلاء ، وذلك يأتى يوم الآخرة ويقول الله بعد أن ينزل بهم النكال والعذاب :

﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (سورة المطففين)

فالحق يتساءل ليأتى الجواب على ألسنتنا ، والسؤال هو : هل قدرنا أن نجازيهم على ما فعلوه فيكم ؟ فاسخروا أنتم منهم ، واضحكوا عليهم كما سخروا منكم فى الدنيا .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » وهم اليهود . و « أوتوا نصيباً من الكتاب » أى أنهم لم يأخذوا بكل الكتاب بدليل أنهم نسوا حظاً مما ذكروا به ، « ويشترون الضلالة » ، وساعة تسمع كلمة « يشترى » اعرف أن هناك معاوضة ومبادلة ، سلعة وثمنا ، فيشترون الضلالة بماذا ؟ ماذا سيدفعون ؟ الحق يقول فى آيه أخرى :

﴿ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٦ سورة البقرة)

أى أنهم دفعوا الهدى ثمناً وأخذوا الضلالة سلعة ، وعادة ما ندفعه يضيع من يدنا ، وما نشتريه نأخذه لنا . فحين تشترى سلعة بجنيه . فالجنيه يضيع ، بعد أن كان معك أولاً ، فحين يقول : « اشتروا الضلالة بالهدى » فهل كان معهم هدى وقدموه وأخذوا الضلالة ؟! نعم ، كان معهم هدى الفطرة . فكل واحد عنده هدى الفطرة .

إياك أن تظن أن العقل الواعى ينتظر رسولاً ليدله على الله ، إنما هو ينتظر رسولا ليبلغه مرادات الله منه ، ذلك أن الإيمان بالله أمر من أمور الفطرة ، فالإنسان عندما يتفتح وعيه يجد أشياء فى الكون تخدمه ، خدمة مستقيمة رتيبة ، ولا تتخلف عن خدمته أبداً ، هناك شمس تطلع كل يوم ، وهواء يمر ، أرض عندما تزرعها تعطيك خيراً كثيرا . ألك قدرة على شىء من هذا ؟ هل ادعى إنسان مثلك أن له قدرة عليه ؟ كل هذه الكائنات أنت تطرأ عليها ، ولم تأت بها .

وعندما يولد الإنسان ويرى كل هذه النعم موجودة . ألا يؤمن بأنها من عطاء خالق ؟ الإنسان فوجىء عندما ولد بوجود النعم . وأيضاً آدم عندما خلق فوجىء بالنعم موجودة، إذن فهو قد طرأ عليها، بالله مادام هو قد طرأ عليها ألا يفكر من الذى أقام هذه النعم له ؟ كان لابد أن يفكر من الذى صنع له كل هذه النعم ، وضربنا من



قبل مثلاً بمن انقطعت به الوسائل وهو فى الصحراء ولم يجد ماءً ولم يجد طعاماً، ثم يئس فنام ، ثم استيقظ فوجد مائدة عليها أطايب الطعام ، بالله قبلها يأكل ألا ينظر ويفكر ويقول فى نفسه : من الذى أعدّ وأقام تلك المائدة ؟ أنت ـ إذن ـ وارد على الكون بخيره كله ، ولا أحد قال لك : أنا الذى فعلته ، لا أبوك ولا جدك ولا جد جدك قال هذا ، فلا بد أن تنتبه إلى أن له خالقاً .

إذن فالذين اشتروا الضلالة بالهدى ، أكان معهم هدى فقدموه وأخذوا الضلالة ؟ ! نعم كان معهم هدى الفطرة ، ولذلك حين سُئل الإمام على ـ كرّم الله وجهه ـ : أعرفت ربك بمحمد أم عرفت محمداً بربك ؟

قال : لو عرفت محمداً بربى ما احتجت إلى رسول ، إذن فلايصلح أيضا أن يقال لأحد « عرفت ربك بمحمد »؛لذلك قال على كرم الله وجهه : ولكنى عرفت ربى بربى ، وجاء محمد فبلغنى مراد ربى منى . إذن فقوله : « الذين اشتروا الضلالة بالهدى » ماذا فعلوا ؟ باعوا هدى الفطرة واشتروا الضلالة . وهنا يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ».

ولم يأت بـ « الهدى » هنا ، وهذا يدل على أن الفطرة انطمست عندهم انطماسا بحيث لم يقدموا ثمناً للضلالة من الهدى .

« ويريدون أن تضلوا السبيل »و الإرادة هى : أن يرجح الشخص المختارُ حكماً على حكم ، ومثال ذلك : أنت أمامك جوربان مثلا ، فلك أن تختار واحداً منهما ، لكن لو كان أمامك جورب واحد فإرادتك لاترجح . إن الإرادة ترجح اختيارا على اختيار ، وما معنى « تضلوا »؟ الضلال يطلق بإطلاقات متعددة ، فحواها كلها أن هناك أمراً من الحق ليس على بالك ، فهل يحدث ذلك لأنك نسيته أو عرفته وتعمدت أن تتركه ؟ . فالذى نسى هذا الأمر معذور.لكنْ هناك إنسان آخر يعرف هذا الأمر لكنه تعمد أن يتركه ، إذن فالضلال يطلق مرة على النسيان كما فى قول الحق :

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فالضلال هنا نسيان لكن هناك من يضل لأنه يفتقد المنهج الحق ويتشوف ويتطلع إليه ليتبعه ، كما في قوله :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ ﴾

(سورة الضحى)

أى أن المسائل متشعبة على الإنسان فيرى هذا وذاك ، فأوضح الحق لك : لاتتعب نفسك لأنى سأعطيك السبيل المستقيم . إذن فالضلالة لها معان متعددة ، وفحواها جميعاً أنها لاتوصلك إلى الغاية ، والحق سبحانه وتعالى حينما يعرض قضية إيمانية عقدية معنوية يستعمل فيها الألفاظ التى يستعملها الناس فى الكونيات ، ولذلك فما هو السبيل؟ . السبيل ـ عندنا ـ هو الطريق ، وكلنا حتى غير المؤمنين يعرفون أن الطريق يُصنع ليوصل إلى غاية ، ولكن لابد أن نعرف الهدف أولاً وبعد ذلك نرصف الطريق ونعبّده ، ففيه فرق بين السبب الدافع والواقع .

نحن قبلما نرصف الطريق نرى إلى أين يذهب؟ إذن فالغاية أولاً وبعد ذلك نلتمس أقصر طريق يوصلنا إلى المطلوب . وعندما نكتشف أقصر طريق يوصلنا للمطلوب نمهده ونعبّده لكيلا نتعب الناس ، إذن فالسبيل هو : الطريق الموصل إلى الغاية . ولذلك أوضح لنا الحق أن الطريق إلى الإيمان مستقيم كى لا يأخذ مسافات ، فالخط المستقيم هو أقصر الخطوط .

إننا لا بد أن نعرف الغاية قبل أن نعرف السبيل إلى الغاية . وآفة الدنيا وأهلها أنهم يعيشون فيها ولايعرفون غاياتهم النهائية ، إنما يعرفون غاياتهم الجزئية ، فالطالب يريد أن يتعلم كى يكون موظفا ، لكى يتزوج ويقيم أسرة ، والتاجر يتاجر لكى يعمل كذا ، هذه هى الغايات الجزئية ، والذكى هو من لايذهب للغايات القريبة المنتهية ، بل ينظر إلى الغايات الأخيرة ؛ لأن الناس تختلف فى الغايات المنتهية ، فواحد يعيش خمسين سنة ، وآخر يعيش ستين عاماً ، وثالث يعيش لمدة سنة ، إذن فلابد أن تنظر إلى الغاية التى سيذهب لها الكل ، وآفة الناس أنها تعمل للدنيا ، يعنى للغايات القريبة ، برغم أن « الدنيا » تعنى الأقل والأتفه ، ولذلك اسمها « الدنيا » ، ومادامت « دنيا » إذن فهناك « عليا » .

إن تعب الناس يأتى من أنها تعمل للغايات الدنيا ؛ لذلك نقول لكل إنسان : انظر الغاية العليا التى سيكون الكل شركاء فيها ، والكل لابد أن يصل لها . فإذا ما عرفنا الغاية العليا نجونا من إرهاق قصر النظر والغرق فى الغايات المحدودة ، مثلاً : أنت تبعث ابنك ليتعلم من سن الحضانة ثم إلى الروضة ثم الابتدائى ثم الإعدادى ثم الثانوى ثم التعليم العالى ثم يتخصص فى مجال معين فى التعليم العالى ، وتصل سنوات عمره إلى العشرين سنة ليتخرج ويتوظف ويقدر أن يعيش بكده وعرقه،والأب يعمل لهذه الغاية ، وقد لا يصل الابن إلى الوظيفة ، وقد يُتعب الابن والده ولا يكمل تعليمه وبذلك تفلت منه الغاية . لكن نحن نريد الغاية التى لا تفلت ، فأنت الآن تعيش فى أسباب خلقها لك الحق ، فاجعل غايتك أن تعيش مع الحق .

إنك فى الدنيا تعيش مع الأسباب التى خلقها لك الحق ، لكنك فى الآخرة ستكون مع الحق نفسه . أنت فى الدنيا تعيش بالأسباب ، ولكنك تعيش فى الآخرة بالمسبب ، ومهما ارتقت أسبابك . فأنت لن تستطيع أن تصل إلى مستوى رفاهة الآخرة . صحيح أنه إذا ارتقت حياتك فى الدنيا فقد تضغط على زر فى الحجرة ويأتيك فنجان قهوة ، أو تضغط على زر فيأتيك الأكل ، ولكن قل لى مهما ارتقت الحياة أيوجد ارتقاء بحيث إذا خطر الشىء على بالك يأتيك ؟ لا يمكن ، وهذا ما سيكون لنا فى الآخرة ، إذن فهذه هى الغاية الحسنة ، ونحن نعيش فى الدنيا مع أسباب الله الممدودة لنا ، أما فى الآخرة فسوف نعيش مع الله ولذلك أوضح سبحانه : سأعطى المؤمن والكافر الأسباب فى الدنيا ، فالكافر عندما يزرع يجد نتاجاً ، وعندما يبحث فى الكون وينظر أسراره فالأسرار تتكشف له ، لأن الأسباب خلقها الله لمن يأخذ بها سواء أكان مؤمناً أم كافراً . لكن المسبب لا يذهب له إلا من آمن به ، أما الكافر فقد آمن بالأسباب فأخذ الأسباب ، ولم يمنعها الله منه:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

إذن فهل غايتك أن تبقى مع الأسباب أو تذهب إلى المسبب ؟ انظر إلى غايات

الدنيا القريبة ، ستجد أنها قد تنتهى قبل أن تصل إليها ويكون تعبك قد ذهب هباء . ولذلك أخفى الله الموت وأسبابه وزمنه كى يختبر الإنسان ، فهناك من يحقق كل ما رغب فيه وفى آخر الأمر تنتهى المسألة بالموت ، وهو قد أخذ الهباء لأنه لم يؤمن بالمسبب ، هب أنه أخذ الدنيا كلها عنده ، نقول له : سيأتيك الموت ، يعنى إما أن تفارق أنت النعمة وإما أن تفارقك النعمة ، ولكن فى الحياة الآخرة أنت لا تفارق النعمة ولا النعمة تفارقك.فهذه ـ إذن ـ هى الغاية الحقة ، غاية العقلاء . ومتعتك فى دنياك كما قلنا على قدر أسبابك.أما متعتك فى الآخرة فهى على قدر المسبب ، وسبحانه لا يقادر قدره ولا أحد يماثله فى فعله . والعاقل هو من ينظر إلى الغاية البعيدة .

إذن فالسبيل لا يمكن أن يكون طريقاً إلا إذا علمت الغاية ، والذى يجعل الناس تتعب فى الدنيا ، أنهم لا يعرفون إلا الغايات القريبة ، ولذلك سماها « الدنيا » ولا يوجد اسم أدنى من ذلك لها ، وكان يجب أن يوحى هذا الاسم بأنها فانية وهناك باقية . إذن فقبلما ترسم السبيل لابد أن تحدد الغاية . وبعدما تحدد الغاية تختار السبيل الذى يوصلك للغاية ، وهكذا نعرف أن هناك فرقا بين واقع ودافع ، الشىء الدافع هو أن تنصب الغاية أولاً وتحددها ، فالتلميذ يجتهد كى ينجح ، وينجح لكى يأخذ حظه فى الحياة ، وهذه الغاية لابد أن توجد فى ذهنه قبلما يتعلم ، وعندما يتصور النجاح ولذته فى ذهنه فهو يبدأ فى المذاكرة ، وعندما يذاكر يصل إلى الغاية وهى النجاح ، فالغاية نوعان : غاية دافعة ، وغاية واقعة ، فالغاية الدافعة تسبق الطريق ، والغاية الواقعة تتأخر عن الطريق ، ومن الذى يحدد الغاية ؟ .

إن الذى يحدد غاية كل شىء هو من صنعه ، وغايتك أنت من الذى يحددها ؟ أنت تحدد الغايات الدنيا ، أما الغايات العليا فعليك أن تتركها للأعلى ليحددها وهو الله . ومادام هو سبحانه الذى يحددها لأنك صنعته وخَلقه ؛ لذلك تسأله : أنت سبحانك الذى تعلم موقعها فهيىء لنا الطريق الذى يوصلنا لها . لابد إذن من الإيمان إذا ما كانت الغاية هى أن تعيش مع الحق ، والسبيل هو المنهج :

﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

أى أن سبلكم أنتم لا توصلكم إلىّ ؛ لأنكم حددتموها بغاياتكم ، أمّا أنا فقد

حددت السبيل بغايتى فمن أراد أن يصل إلىّ فلينظر إلى طريقى . وكلمة « السبيل » ، و« الطريق » كلها أمور حسية ، والحق يستعملها لنا ليدلنا على المعانى العقدية والمعانى المعنوية يوضحها ـ سبحانه ـ بأمور حسية أمامنا ، وعندما توجد فى مفترق طرق وتريد أن تصل إلى المنطقة الفلانية . فانحرافك بمقدار ملليمتر واحد فى بداية الطريق ، يبعدك عن الهدف ، وكلما امتد بك السير اتسع المشوار وتبعد المسافة ، فأنت تتوه ، ونمثل لهذا بشىء بسيط جداً : كلنا نركب القطارات ، والقطارات تسير على قضبان مستقيمة . فإذا أردنا أن نحول القطار فنحن لا نرفعه ونضعه على قضيب آخر ، بل نأتى بتحويلة لا تتجاوز اثنين من الملليمتر ونقربها إلى حد الالتصاق فى القضيب الأصلى ، وهذا ما يفعله « المحولجى » ، فينحرف القطار لينتظم الخط وليصل إلى المحطة المطلوبة .

ولفتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك بما رواه سيدنا حذيفة ـ رضى الله عنه ـ حينما قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا : أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ـ أى أن الإيمان فطرى ـ ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة .

ثم حدثنا رسول الله عن رفع الأمانة قال :

«ينام الرجل النومة فتغيض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ـ وهو اللسعة التى توجد أثراً على الجلد ـ ثم ينام الرجل النومة فتغيض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجْل» (والمجل هو أثر الجمرة التى تظل مدة طويلة على جلد الإنسان فتسبب ورماً فيه مياه ـ كجمر دحرجته على رجلك فنفط ـ أى انتفخ ـ فتراه منتبراً وليس به شىء) فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدى الأمانة حتى يقال: « إن فى بنى فلان رجلاً أميناً »[1] .

ويستمر سيدنا حذيفة قائلاً :

ولقد مر علىّ زمان وما كنت أبالى أيكم بايعت لئن كان مسلماً ليردنه علىّ دينه ،

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه وأحمد .

ولئن كان نصرانياً ليردنه علىّ ساعيه ـ أى المحتسب ـ وأما الآن فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً .

إن الإيمان فطرى . إنّ قصارى ما يعطيك هذا الإيمان الفطرى أن وراء هذا الكون الدقيق قوة عظمى ؛ فالكون المنظم ، الرتيب ، الذى لا يدخل تحت طاقتك ولا تحت قدرتك ، هذا الكون يسير على أحسن نظام . والقوة العظمى القادرة التى وراء ذلك الكون تتصف بالقدرة ، وبالعلم ، وبالحكمة ، وبكل صفات الكمال .

لكن أيعطيك فكرك وعقلك اسم هذه القوة ؟ لا يمكن أن يعطى العقل اسم هذه القوة . أيعطيك فكرك وعقلك مرادات هذه القوة ؟ إنك لا تستطيع أن تعرف مرادات هذه القوة إلا برسول ترسله ليبلغ عنها . والرسول عندما يأتى يقول : إن القوة التى تبحثون عنها ، والتى آمنتم بها إيماناً مجملاً اسمها « الله » . فلا بد أن نصدق الرسول . فالعقل لا يقول لنا اسم القوة الخالقة . ولكن الذى يقول لنا اسم هذه القوة هو البلاغ ، ويعطينا الحق هذا البلاغ من خلال الرسول بكل مراداته من وجودنا .

وهذا هو أقصر طريق للوصول إلى الحق بعيداً عن تعقيدات الفلسفة أو تعقيدات المنطق ، وسفسطة الجدل ، هذا الطريق الذى يثبت أن من يعبد أى قوة غير الله لا حق له فى مثل هذه العبادة . فالذى يعبد الشمس مثلاً هل يستطيع أن يقول لنا ما هو منهج الشمس الذى تطلبه من الإنسان ؟ وماذا قالت لمن يعبدها جزاءً للفعل الحسن أو عقاباً على الفعل السيىء ؟ ماذا تستطيع هذه الشمس أن تفعل لمن لا يعبدها ؟ . إنها لا تملك ثواباً ولا عقاباً ، ولا منهج لها ، وإله بلا منهج لا يصلح أن يكون إلهاً . فالإله لا بد له من منهج يدل الناس على صواب الفعل وينهى عن سوء الفعل ويملك سلطان الثواب والعقاب . والشمس لا تملك منهجاً تعطيه ،وكذلك الحجر أو القمر .

إذن فهذه الأشياء مخلوقة بدورها من قبل خالق ولا تصلح أن تكون آلهة . ووجود الرسل المبلغين عن الله دليل على صدق الدعوة. فالحق سبحانه وتعالى يعطينا إيماناً بوجوده من خلال المنهج . . ونحن قبل البلاغ نعرف أن هناك قوة خالقة لا نعرف

اسمها ولا مرادها ؛ ولذلك فعندما يأتى الرسول بالبلاغ فهذه رحمة من الله بالخلق . أما من يحاول أن يخطط بعقله لحياته بدون الرسول فنقول له : أنت تصيب نفسك وروحك بالتعب ولن تصل إلى شيء . ونضرب هذا المثل دائماً ـ ولله المثل الأعلى ـ هب أننا نجلس فى غرفة والباب مغلق ثم طرق الباب طارق . هنا نتفق نحن الجلوس فى الغرفة فى أن وراء الباب طارقاً .

ولكن إذا أردنا تحديد هذا الطارق وتعيينه فسنختلف . فيقول قائل : إنه رجل . . ويقول آخر : لا.إنه امرأة . ويقول ثالث : لا.إنه طفل . ويقول رابع : هذا بشير . ويقول خامس : هذا نذير . ويقول سادس : إنه القادم لنا بالقهوة . ويقول سابع : إنه رجل مكلف بالقبض علينا .

هكذا نتفق على أن طارقاً بالباب ونختلف فى تحديد « مَن الطارق » . وهكذا الكون ، الكون وراءه قوة هائلة وعندما يحاول الإنسان أن يقول اسم هذه القوة بعقله أو مرادات هذه القوة فهذا يسبب الخلاف . ولكن حينما ترسل القوة عن نفسها رسولاً ليقول : إن القوة الخالقة اسمها الله ومرادات الله كذا ، ففى ذلك حسم للخلاف .

إن الذى أرهق الفلاسفة ووصل ببعضهم إلى دهاليز التيه ، هو أن بعضهم لم يكتف بتعقل القوة التى خلقت الكون . بل إنهم أرادوا أن يتصوروا القوة وما هياتها ومراداتها . ونقول : إن نظرة الفلاسفة إلى الخالق لا تصلح ؛ لأنهم بتلك النظرة يظلون فى التيه ، ولكن البلاغ عن طريق رسول هو الذى يحسم هذه المسألة . والحديث الذى رواه لنا سيدنا حذيفة عن الأمانة يصور لنا مهمة الإيمان وكيف يتعلم المؤمن من القرآن والسنة ، وعندما يهمل هذا العلم ، فما الذى يحدث ؟

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يمثل لنا مراحل فقدان الأمانة . وينبهنا : احذروا من أن تتسلل الانحرافات بنومة قليلة ، ثم إلى أخرى أكبر منها ، ثم إلى ثالثة أكبر وأوسع . وشرحنا ذلك بمثل الانحراف المقصود لقطارات السكك الحديدية .

إن قوله الحق سبحانه : « يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل » كى لا ينفردوا ـ وحدهم ـ بالضلال ، والحق سبحانه يعطينا مناعة ضد كلامهم ، فهم لهم حظ من علم الكتاب وهذا قد يجعلنا نحسن الظن بأن لهم صلة بالسماء؛لأنهم أتباع رسل ، فسبحانه يوضح لنا : هؤلاء يريدون أن تضلوا السبيل ويتخذوا من نصيب الكتاب الذى عندهم وسيلة كى يضلوكم .

وفى عصرنا نجد أن أعدى أعداء أى عقيدة ليسوا أعداءها الظاهرين وإنما أعداؤها من أنفسهم . لأن عدوّى الظاهر الكافر يجابهنى وأنا واثق أنه يريد أن يدس لدينى ويدلس ويحرف فيه ، لكن عندما يكون هناك مسلم مثلى يأتى ليكلمنى فربما آخذ كلامه على أنه مسلم ؛ ولذلك فخصوم الإسلام يئسوا أن يواجهوا الإسلام مواجهة صريحة ؛ ولذلك نجد الغرب قد توقف الآن عن مسألة الاستشراق ، وما بقى من الاستشراق فهذا هو القديم . وكان المستشرق من هؤلاء يؤلف كتاباً ؛ ساعة يقرأه المسلم قد يقول : إنه رجل يعمل على خدمة العلم وعلى خدمة الثقافة ، وخدمة سنة رسول الله . وقد يكتفى هذا المؤلف بأن يدس فى الكتاب الواحد فكرة واحدة بعد أن يجعل القارىء يثق فيه .

وعندما علموا أننا فطنا لهذا دخلوا علينا بالمستغربين . وهم أناس منا ذهبوا إلى الغرب فأخذوا الداءات من هناك وجاءوا فبثوها فى مناهج تعليمنا ، وفى برامجنا ، وفى وسائل الإعلام ، وفى الصحافة ، والواحد من هؤلاء المستغربين يفعل ذلك وهو مسلم ، فيكون محل ثقة ، ووجد الغرب أن أيسر طريق لهم الآن أن يدخلوا إلينا عن طريق بعض المسلمين الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ؛ لأن الإنسان سيكون مطمئناً إلى أن هؤلاء مسلمون ؛ فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا : أن خصومك الظاهرين أهون عليك من خصومك المنسوبين إلى دينك ؛ لأن هؤلاء يدخلون عليك بالثقة الأولى ، ثقة انتسابهم للإسلام ؛ ولذلك يوضح لنا ربنا هذا الأمر لأنه قد يتعب ويصيب المؤمنين بالعنت لذلك يقول : « أوتوا نصيباً من الكتاب » وهم يعيشون على هذه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ۝٤٥ ﴾

فقد يكون عندكم علم بالأعداء فيقال : أنتم عالمون بأعدائكم . لكن الله أعلم بالأعداء جميعا؛ لأنه قد تكون لك عداوة بينك وبين نفسك ، أو عداوة من زوجتك ، أو عداوة من أولادك أو كلٍ هذه العدوات جميعها أو بعضها . وهؤلاء فى ظاهر الأمر لا يمكن للإنسان أن يتبينَ عداوتهم جميعا ، لكن الله أعلم بهم وبما يخفون ؛ لذلك يقول : « والله أعلم بأعدائكم » .

وجاء بها بعد قوله : « ويريدون أن تضلوا السبيل » أى مخافة أن نقول : إن هؤلاء أهل كتاب أو مسلمون مثلنا وكذا وكذا . ومادام الله هو الأعلم بالأعداء . فهو لن يخدعنا ولن يغشنا ، فيجب أن ننتبه إلى ما يقوله الحق من أنهم أعداؤنا ، ويقول بعدها : «وكفى بالله وليًا» وحين يقول هذا ، فالقول يعنى أنك لا تريد وليّاً بعد ذلك، كما يقولون : كفانى فلانٌ ؛ أى أنك قد تحتاج إلى هذا وهذا ثم تقول : لكنَّ فلاناً عرفته فكفانى عن كل ذلك ، أى لا يحوجنى إلى أحد سواه ؛ لأننى أجد عنده الكفاية التى تكفينى فى كل حركة حياتى .

«وكفى بالله وليّاً » . . نعم كفى به وليّاً لأن غيره من البشر إنما يملكون الأسباب ، والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الأسباب ، فيملك ما هو فوق الأسباب . ولذلك يقول مطمئناً لنا :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾

(سورة الطلاق)

و« الولى » دائماً هو من يليك مباشرة أى أنه قريب منك . « وكفى بالله نصيرا » إذن فهناك قريب ، وهناك أيضا نصير ، فقد يكون هناك من هو قريب منك ولا ينصرك، لكن الله ولىّ ونصير ، فمادامت المسألة مسألة معركة « والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً » ، كأن الحق ينبهنا : إياكم أن تقولوا إننا نلتمس